الجوهر،
الأقنوم، النعمة

دكتور
جورج حبيب بباوي

٢٠١٥

www.coptology.org

الجوهر – الأقنوم – النعمة

ورد إلى الموقع سؤال من الأخ أشرف زكي:

أ- هل عندنا أباء في كنيستنا الأرثوذكسية عبروا عن اتحادنا بالروح القدس على إنه اتحاد أقنومي؟

ب- هل هناك من أباء في الكنيسة المسكونية حتى القرن الثاني عشر من استخدم مصطلح الاتحاد الأقنومي للتعبير عن حلول الروح القدس على المؤمنين؟

ج- نحن نسأل عن آبائية مصطلح بعينه، وليس أي مصطلح أخر, لأنه لا خلاف على بقية المصطلحات كالتأله والتبني والخلاص الأبدي.

الأخ العزيز/ أشرف

سلام ربنا يسوع يكون معكم ويدوم فيكم،

بسبب اللغط الذي ساد في السنوات الماضية، أثيرت محاولات شريرة تهدف إلى إدخال الشك والريبة إلى قلوب وعقول الكثيرين من النعمة الإلهية، وذلك باعتبارها مجرد إنعام وعلاقة أدبية أخلاقية لا تمس الكيان الإنساني، منكرةً أن النعمة الإلهية تحوِّل:

- المائت إلى خالد.
- المستَعبَد إلى ابنٍ حُرٍّ من الموت ومن الخطية.
- المخلوق من التراب إلى مخلوقٍ من جديد، سمائي.
- من آدم الأول إلى يسوع المسيح. (هذا ملخَّص ١كو ١٥: ٤٢-٤٩).

فقد حاولت أيادي الإثم أن تعبث بالإيمان، فتجعل علاقتنا بالله علاقة عارضة بلا تحوُّلٍ في الكيان. واستهدفت حملات الرعب تلك، لفظتين: "الجوهر" و"النعمة".

واضطلع بالهجوم أشخاصٌ لم يدرسوا اللاهوت دراسةً منهجيةً؛ لذا اكتفوا بعباراتٍ قُطعت من السياق، لفصل جوهر الثالوث عن النعمة.

قبل ذلك الفصل، تمَّ تقسيم الآب والابن إلى غاضبٍ، وهو الآب، ومغضوبٍ عليه، وهو الابن. وهكذا دخلت الخطية إلى أعماق جوهر الثالوث؛ لكي تفصل الآب عن الابن المعلَّق على عود الصليب.

ولكي نوضح مدى الخسارة التي تلحق بالإنسان نتيجة هذا الفصل، وذلك العبث، كان من اللازم أن نعقد هذه المقارنة:

الثالوث — الجوهر	الإنسان — النعمة — تدبير الخلاص
+ أزلي — كائن — واجب الوجود لا يستمد كيانه من آخر	خُلق من العدم — ليس له حياة ذاتية، بل يستمد وجوده من الله. ليس واجب الوجود، بل خاضع للتغيير، وخَضَعَ للموت.
+ الخلود والحياة الأبدية هي صفات حياة الثالوث، هي طبيعة الثالوث.	الخلودُ منحةٌ؛ لأن الإنسان الذي خُلق من العدم لا يمكن أن يكون خالداً أو حياً إلى الأبد بالطبيعة.
+ تجسَّد الابنُ، فأخذ الطبيعة القابلة للموت والفساد، فحوَّل هذه الطبيعة إلى طبيعة مجيدة غالبة الموت وقام حياً بمجد الآب. المجد الذي كان له قبل خلق الكون.	أعطى الابنُ للإنسانيةِ ذات التحوُّل الذي حدث لناسوته الذي أخذه من العذراء والدة الإله. ونحن في طريقنا إلى هذا التحول من بعد اتحادنا بالمسيح بالروح القدس. فما حدث لناسوت الرب يحدث لنا.
+ تألَّه ناسوت الرب، فلم يعُد بعد ذلك الجسد الذي يمكن أن ينزف دماً أو يعاني الموت أو الضعف أو الفساد.	ونحن نتألَّه كما تألَّه ناسوت الرب؛ إذ ننال ذات التحوُّل، فلا يسود علينا الموت أو الألم أو الفساد، بل ننال ذات المجد.

+ حاولت الهرطقات القديمة أن تفصل النعمة عن الجوهر كما حاولت من قبل أن تفصل الأقانيم: فقد ادَّعَت الأريوسية أن للابن جوهراً آخر غير جوهر الآب. وفصلت النسطورية بين اتحاد الطبيعتين. واعتبرت الأنومية أن الابنَ قوةٌ خلقها الآب، وأنها قوة غريبة عن جوهر الآب؛ لأن جوهر الابن ليس مثل جوهر الآب.	+ يفقد الانسان كل شيء إذا فُصل أقنوم الابن عن الآب، أو إذا اعتُبِرَ الابن مخلوقاً مثل باقي المخلوقات. بهذا الفصل يفقد الإنسان: – البنوة – القيامة – سُكنى الروح القدس لأن هذه العطايا نابعة من الثالوث تعطى من الآب بالابن في الروح القدس. وعدم فقدان هذه العطايا يجد مرجعيته في أنه لا يوجد كيان أو شيء منفصل عن الثالوث اسمه النعمة، ولا توجد طاقة كائنة بذاتها. أمَّا إذا ساد منهج الفصل والتقسيم؛ عندئذٍ يلوح الخطر الحقيقي، وهو تحول المسيحية الأرثوذكسية إلى مجرد دعوة أخلاقية سامية.

هل نشترك في جوهر الثالوث؟

الإيمان الأرثوذكسي هو الخبر السار، أي الإنجيل، وهو لا يبدأ بالنفي (راجع قانون الإيمان النيقاوي، فلا نفيٌ فيه).

الشركة في جوهر الثالوث هي **أولاً**: أن نعرف الله كما استُعلِن في الابن المتجسد. **ثانياً**: أن نتحول بهذه المعرفة والرؤيا إلى ذات شكل وحياة الثالوث، "نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجد إلى مجد كما من الرب الروح" (٢كو ٣: ١٨). والتحول بالمعاينة يؤكِّده يوحنا الانجيلي: "أيها الأحباء نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا سنكون،

ولكن نعلم أنه إذا ظهر (الرب يسوع) نكون مثله لأننا سنراه كما هو" (١يوحنا ٣: ١-٢).

ولكن شركتنا فيما هو مستعلَن تعني أولاً: أننا لا نقتحم الله ونستولي عليه ونأخذ منه ما نشاء حسب إرادتنا. والسؤال الخبيث جداً الذي يحاول إلقاء الرعب في القلوب يكشف عن النزعة العدوانية لأصحاب السؤال. فمن قال منهم -مثل المطران- إن سكنى الروح القدس فينا يحولنا إلى الله، لديه نزعة استيلائية *Possessive* وتدميرية *Distractive* وكلاهما من مظاهر العدوانية النرجسية *Narcissism* [1]، هذه النزعة تنفي تماماً كل تعليم عن النعمة.

مَن يفكر بهذا الشكل هو كمن يفصل جسداً عن رأسه، ويكتفي بالرأس أو الجسد، دون الإنسان كله. أما الشركة حسب النعمة، فقد جعلت الآباء يقدمون لنا عبارات تحذيرية تؤكد أن جوهر الثالوث يعلو على الإدراك، وأننا إذا اشتركنا في جوهر الثالوث، فسوف نعرف حقيقة الكيان الإلهي، أي سوف نصبح الله. هذا مستحيل للأسباب التالية:

١- المخلوق من العدم لا يملك كيانه، وهو محدد *Defined* بالطبيعة التي خُلِق بها، والتي لا يمكن أن تصبح مثل طبيعة الله؛ لأنها أي طبيعة الانسان، أتت من العدم، فلا يمكن أن تتجاوز الحدود *Boundaries* التي أُعطيت لها كنعمة من الله، وهي نعمة الصورة الإلهية (تجسد الكلمة فصل ٣ — ٤).

٢- لأن الرب يسوع نفسه -كما رآه يوحنا واسطفانوس بعد صعوده إلى مجده- ظَلَّ متجسداً. حقاً، صار الجسد هو "جسد مجده" (فيلبي ٢: ٢١)، لكنه ظلَّ إنساناً، وسيظل بالطبيعة الإنسانية التي أخذها من والدة الإله إلى الأبد. نحن سنصير مثله، حسب ما أُعلن في التدبير، أي أننا سنبقى بشراً.

٣- الابن المتجسد رأس الخلقة الجديدة (٢كو ٥: ١٧)، ورأس الجسد الكنيسة

---

(١) راجع في ذلك د. علي زيعور: قطاع النرجسية في النفس. وتبدو المشكلة في أن الاستيلاء على قوة الله -كما يدعي الأنبا شنودة والأنبا بيشوي- يكشف عن حقيقة التكوين النفسي لكل منهما. فعندما يقول الأنبا بيشوي إن حلول الروح القدس علينا يجعلنا آلهة مثل الروح القدس، فهذه عدوانية واستيلائية اسقطها على الثالوث.

(كو ٢: ١٩)، هو واحدٌ مع الآب والروح في ذات الجوهر الواحد، جوهر الثالوث القدوس. نحن في المسيح في هذه الحياة المستترة في الله (كو ٣: ٣)، ولسنا في حالة انفصال عن جوهر، أي حياة الثالوث. ولكن ما هو متاحٌ لنا، هو ما أُعطي بالابن في الروح. نحن لا نقتحم الحياة الإلهية؛ لأن التعدِّي هو من سمات الطبيعة الساقطة، أمَّا الشركة بالمحبة وبخضوع هذه المحبة، فهو من سمات الحياة الجديدة. نحن نشترك في حياة الثالوث بالقدر الذي استُعلِن، وما هو متاحٌ لنا، محققٌ وثابتٌ في شركة الابن يسوع المسيح في حياة الآب والروح القدس.

التألُّه هو أن نصبح مثل يسوع المسيح؛ لأننا سنأخذ من ملئه (يوحنا ١: ١٨)، وفينا نفس محبة الآب للابن (يوحنا ١٧: ٢٦). ومثال التألُّه هو ناسوت الرب، وهو لم يتألَّه إلَّا بسبب الاتحاد بأقنوم الابن الكلمة، فصار "الجسد المحيي"، وصار بلا ألم وبلا موت، وهذه خاصة بالابن. ونحن نأخذ بكل يقين الخلود وعدم الألم والحياة الأبدية ولكن لا يملك أيٌّ منّا أن يكون "محيياً"؛ لأن هذه النعمة لم توهَب لنا.

الاتحاد الأقنومي:

ظهر هذا التعبير في حلبة الصراع ضد النسطورية، وهو خاصٌّ بتجسُّد الابن الوحيد. نحن نتَّحد بالرب في المعمودية (رو ٦: ١-٨)، وفي شركتنا في جسده الواحد (١كو ص ١٢ كله)؛ لأننا جسده. وهو نفس الاتحاد الذي حدث في تجسد الرب: بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير. لا يوجد لدينا إلَّا اتحادٌ واحدٌ حسب التدبير. أمَّا وحدانية جوهر الثالوث، فهي ليست اتحاداً، بل هي الطبيعة الواحدة للثالوث، بينما الاتحادُ تعبيرٌ خاصٌّ باتحاد الطبيعتين، وقد وُلِدَ هذا التعبير في حقبة الدفاع عن الإيمان ضد النسطورية.

نحن نتَّحدُ بأقنوم الابن المتجسد؛ لنكون أعضاء جسده (١كو ١٢: ٧): "أنتم جسد المسيح وأعضاؤه أفراداً"، **لكننا لسنا أقانيم متجسِّدة**، ومَن ينسبُ إلينا عكس هذا، يفتقر إلى العقل قبل الدليل؛ لأننا أصلاً بشرٌ وسنظل بشراً، ولا يمكن أن يُقال على مَن هو في الأصل جسد، إنه تجسَّد، وبالتالي يظل هذا التعبير مقصوراً على الرب يسوع، فهو وحده المتجسد، ونحن أعضاء جسده. نحن لن نكون أقانيمَ تضاف إلى الثالوث.

هذا جنونٌ وتهوُّرٌ يحتاج إلى علاج عقلي. التجسُّد رَدَّ إلينا إنسانيتنا، وتألُّهنا هو بقاء كل إنسان، إنساناً حقيقياً خالداً وحيَّاً إلى الأبد مثل مخلصنا الصالح.

لكن من ناحية أخرى، لا يجب التهور وإنكار أن الإنسان أقنوم؛ لأن هذا الإنكار يعني أن الرب تجسَّد وهو الأقنوم لكي يفتدي أشياء *Objects* ونحن لأننا خُلقنا على صورته ومثاله، فنحن أقانيم، والخداع اللغوي ظاهر؛ لأن الكلمة "أقنوم" السريانية الأصل، تعني "شخص". والشخص جاء لكي يخلِّص من هم أشخاص لا من هم أشياء. ولكن لأننا درجنا على استخدام كلمة "أقنوم"، نسينا أنها تعني "شخص".

حلول النعمة:

"الكلمة يحل فينا" إلهاً متجسداً. وحلوله فينا هو النعمة التي تجعل ليس الابن وحده مَن يحل فينا، بل الآب والروح القدس أيضاً (يوحنا ١٤: ٢٣) "إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً". ونحن ننال من ملء أُلوهية الابن.

لاحظ ما يقوله الرسول عن تجسد الرب:

"يحل فيه كل ملء اللاهوت جسدياً". ولم يفصل الرسول ربنا عنا، بل أضاف: "وأنتم مملؤون فيه" (كو ٢: ٩-١٠).

حلول الثالوث، وليس الابن وحده فينا، هو دخولنا شركة الروح القدس (٢كو ١٣: ١٤)، وهي شركة حياة الثالوث، أي الحياة الأبدية التي أُظهِرت، وهي "الحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهِرت لنا .. وشركتنا نحن، فهي مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١ يوحنا ١: ٢-٣). وكما ذكرنا سابقاً، نحن نتحول إلى صورة المسيح لأننا سنراه كما هو. هذا التحول تمَّ في الناسوت بسبب الاتحاد الأقنومي، ومِن أُلوهية الابن أخذ الناسوت عدم الفساد وصار جسده محيياً. نحن نتناول ونشترك شركة كاملة في جسد الرب ودمه، ولكن لا يصبح أيٌّ منَّا له "جسدٌ محيي"، ليس بسبب عدم الاتحاد، أو لأن النعمة ضعيفة، ولكن لأن "الجسد المحيي" هو الجسد الخاص والذاتي للابن الوحيد الذي بسبب اتحاده بلاهوت الله الكلمة صار محيياً، وهو يُحيي كل مَن يأخذ، ولكن مَن يأخذه من المؤمنين لا يصبح مثل المسيح له جسدٌ محيي؛ لأن لكل إنسان طبيعة محددة

Defined جاءت من العدم، وتبقى في الوجود، ليس بقدراتها، ولكن بالنعمة. وبالتالي، فأجسادنا بالرغم من اتحادها بالابن المتجسد، إلَّا أنها لا تأخذ إلَّا ما هو مستعلَن لأن الاتحاد ليس سرقة ونهب لخيرات الله. بينما طبيعة المسيح ربنا، رغم انها أُخذت من والدة الإله ولها طبيعة آدمية كاملة –بلا خطية– إلَّا أنها بسبب الاتحاد بأقنوم الكلمة صارت واهبةَ الحياة، حتى أن نازفة الدم لما لمست هُدبَ ثوبه شُفِيَت، ولأننا عندما نتناوله ننال حياةً أبديةً، ولكن لا نستطيع أن نعطي للآخرين لا القيامة من الأموات ولا الحياة الأبدية؛ لأن هذا عمل الأُلوهة وحدها، وإذا تم بواسطة الناسوت –كما في المعمودية والإفخارستيا– إلَّا أن المصدر هو اللاهوت، والفاعلية والقوة هي بسبب الاتحاد الأقنومي.

الرعب السائد نتيجة سوء استخدام المصطلحات اللاهوتية:

بسبب سوء استخدام كلمات مثل: اتحاد، تألُّه، تبني ... إلخ ظلَّ جيلٌ سابق –كنا منه– يسمع على مدى أربعين عاماً عبارات مجنونة ... أنت أصبحت المسيح .. أنت أصبحت مثل الله قادر على كل شيء، وموجود في كل مكان .. إلى آخر ذلك من عبارات تكشف عن جنونٍ مُطبِق. ولكن يجب أن يترسخ في أذهاننا أن هناك ثلاثة أسباب وراء هذا الجنون:

السبب الأول: هو إنكار أُلوهية النعمة.

وأدعوك عزيزي القارئ أن تتأمل ما قاله رسول الرب: نحن ورثة الله ووارثون مع المسيح، والروح القدس نفسه، أي الأقنوم، يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله (راجع رو ٨: ١٨–١٧)، فهل يمكن لقدرةٍ أو طاقةٍ أو قوةٍ أن تجعل أيَّ إنسانٍ منا أن يجلس على عرش المسيح نفسه، أي عرش الأُلوهة: "مَن يغلب فسأعطيه أن يجلس معي على عرشي كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبي على عرشه" (رؤ ٣: ٢١)؟ ولاحظ فعل "سأعطيه"، ولاحظ أيضاً أن عرشَ الأُلوهة هذا هو عرشٌ واحدٌ للآب والابن. فهل يمكن أن توجد طاقة أو قوة مخلوقة تعطي للإنسان هذا الإنعام الإلهي؟

السبب الثاني: وهو خاصٌّ بتدبير الحياة الكنسية، لأننا بنوال ذات مجد المسيح،

وسكنى الثالوث فينا، لا بُد وأن يتقلص سلطان الإكليروس إلى الصفر، ويعود الكهنوت ليخدم بالنعمة؛ لأنه يخدم أخوة الرب. ولاحظ خداع بعض قادتنا عندما أطلقوا اسم أخوة الرب وحصروه في الفقراء والمعوزين؛ لكي لا نبقى نحن جميعاً أخوة الرب!!!

السبب الثالث: هو أن الذين يحاربون مرةً بفقه اللغة، ومرات بقواعد الإعراب، ومرة ثالثة بالبحث الدقيق عن كلمة، .. هؤلاء جميعاً ليس لديهم اختبار مسيحي حقيقي حي، وهم لا يعرفون إلَّا الخطية. وقد قال لي –في هذا السياق– أحد شيوخ الأسقيط: "إذا كنت أنت ابن الله، وكل مسيحي هو ابن الله، لتغيَّرت كل حياتنا، وسادت المحبة والنعمة"[١] حقاً. آمين. فكيف يمكن لمن لم يتذوق حلاوة المحبة الإلهية –وواحدٌ منهم كان يفتخر بأنه الرجل الحديدي– أن يتكلم عن النعمة والمحبة؟

الشبح الذي يطارد أعداء الأرثوذكسية:

منذ بداية خمسينات القرن الماضي، ووصولاً إلى الستينات منه، كان موضوع الشركة في الحياة الإلهية مجهولاً تماماً، إلى أن صدر كتاب العنصرة للأب متى المسكين، وهنا بدأت جرعة الفهم اللاهوتي الأرثوذكسي في الازدياد. لم يكن لدينا سوى نسخ محدودة جداً لبعض كتابات القديس أثناسيوس. ولم يكن القديس كيرلس معروفاً. وكان "شرح تجسد الابن الوحيد" هو أول ترجمة عربية لكتاب القديس كيرلس السكندري. ثم انفتح باب المعرفة، عندئذٍ شَنَّ الإكليروس حرباً ضد الآباء –وهنا لا داعي لذكر الأسماء، فهذا غير نافع بالمرة– فأُثيرت حملة للتشكيك في أصالة كتابات أثناسيوس، وأُثير هجومٌ لا مبرر له على القديس كيرلس السكندري .. وبات علينا أن نكشف عن السبب الحقيقي لهذه الحرب. فالتعليم بالشركة في حياة الثالوث، هو قلب لاهوت الإسكندرية. هذه الشركة هي نعمة لا يستحقها الإنسان. وطبعاً يضع المحاربون الخطية كمانع لهذه الشركة، بينما الشركة هي الدواء الإلهي الذي يقطع جذور الخطية.

ولم يكن لدينا بحثٌ واحدٌ عن النعمة سوى شذرات وعبارات متفرقة، ثم مقال

---

(١) يقصد هذا الأب أن يكون لدينا إيمان حقيقي بأننا أبناء الله، وليس من قبيل الاستعارة، أو ما وُصِفَ –على لسان الأنبا شنودة– بأنه بنوة شرفية.

للأب متى المسكين. وجاء د. وهيب قزمان برسالة دكتوراه عن النعمة في كتابات القديس اثناسيوس، ورفض الأنبا شنودة أن يقبل نسخة مجانية قدَّمها د. وهيب قزمان، كهدية. وبالطبع بدأت ترجمات عربية للرد على الأريوسيين – الرد على ابوليناريوس – شرح إنجيل يوحنا .... إلخ

ووقع المحاربون في ورطة؛ لأن التعليم الآبائي بدأ يتبلور ويحتل مكانه الصحيح، ولكن ظهر الهروب من المواجهة مع الآباء في عدة أشكال:

الشكل الأول: الادعاء بأن مصدر التعليم هو الكتاب المقدس وحده، وهي دعوة إنجيلية بروتستانتية معروفة.

الشكل الثاني: إطلاق موجة من الشك في صحة الترجمات العربية.

الشكل الثالث: وضع اعتراضات على أهم ما في الأرثوذكسية في صيغ استنكارية، مثل أنت حتبقى زي المسيح، ولما تتناول وتطلع من الهيكل الناس تسجد لك، ثم الوقوع الفاضح في هرطقة نسطور بأننا نتناول الناسوت وحده.

الشكل الرابع: محاولة الإفلات من حلول أقنوم الروح القدس فينا، مرةً باسم روح قدس، أي نعمة، ومرةً باسم القوة أو اسم النعمة.

هكذا سرنا، والآن يحتج البعض على استخدام كلمة "أقنوم" للبشر؛ لسببٍ واحد، وهو أن تبقى بيننا وبين الرب فجوةً لفظيةً اخترعها أعداء المحبة الإلهية بقولٍ واحدٍ منهم: "البشر ليسوا أقانيم". وبناءً على ذلك –طبقاً لقولهم– كان على الثالوث أن يرسل ما هو غير أقنوم الابن وأقنوم الروح لكي يخلصنا؛ لأننا أشياء مثل الشجر والصخور والجبال ولسنا مخلوقين على صورة الله ومثاله!!!

حقٌّ يُراد به باطل:

الحق الذي يراد به باطل هو الشركة، فهي حق. والباطل الذي يسعى محاربو الروح القدس إليه هو الادعاء بأننا نصبح مثل الروح القدس.

تاريخياً ولاهوتياً، تعبير الاتحاد الأقنومي، هو تعبير القديس كيرلس السكندري عن تجسد الكلمة. لا خلاف على ذلك، واتحاد الرب بنا ليس تمثيليةً مؤقتةً، بل هو اتحادٌ

أبديٌّ لا انفصال فيه، أخذ قوة البقاء الأبدي من الاتحاد الأقنومي، وهو خاصٌّ بالرب. ولكن الربَّ إذا منع عنّا ما حوَّله في كيانه، ضاع فداء الإنسان. والهجوم على استعمال تعبير الاتحاد الأقنومي له قصدٌ واحدٌ شرير، هو فصل الإنسان عن المسيح. الاتحاد الأقنومي خاصٌّ بالمسيح، ولكن إذا مُنِعَ عنّا ما أثمره هذا الاتحاد الأقنومي، تحول التعبير إلى لفظٍ أجوف. حقاً لا يوجد في كتابات الآباء ما يدل على استعمال هذا التعبير الفائق والخاص بتجسد ابن الله، في وصف العلاقة بيننا وبين المسيح ربنا بأنه اتحاد أقنومي، ولكن الرأس الواحد والجسد الواحد والكرمة والأغصان هي الكلمات الإلهية التي تؤكد هذا الاتحاد الأبدي الذي لم يوصَف بأنه اتحاد أقنومي. لكن اتحاد الله الكلمة المتجسد بالإنسانية، وهبنا فيه هو: الثبات الأبدي — المجد — التبني — والتأله — والقيامة من الأموات — وسكنى الروح القدس سكنى أبدية فينا. هذه هي حقائق وقوام اتحادنا بالرب، ومن ينكرها فهو بعيد تماماً عن المسيح. هذه النعم لا يمكن أن تصل إلينا ولا يمكن أن ننتزعها، بل تعطى بالاتحاد بالرب يسوع.

لا يوجد مصدر للحياة الأبدية والقيامة من الأموات وميراث الملكوت سوى اتحادنا بالرب. نحن لا ننال هذه العطايا لكي نبقى في انفصال. تأمَّل –عزيزي القارئ– حياة أبدية بدون الثالوث .. ما هو مصدرها؟ وكيف تبقى أبدية؟ هذا مستحيل.

غير أنه، سوف يطرد نور المسيح هذا الشبح، وسوف نعود إلى الأرثوذكسية، طبعاً بالعرق والتعب والطرد من الخدمة، بل والحرمان من السرائر. ولكن كل هذه لن تمنع نور الحق.

ولا يجب أن ننسى أن الحقَّ فيه إغراءٌ أبديٌّ، جعل شباب قرية العور يحني رأسه للسكين في هدوء؛ لأنه ذاق رؤية ما هو أبدي ونال الثبات في المسيح الرب.

الأرثوذكسية بين الشريعة والنعمة، والارتداد إلى البروتستانتية:

إذن، بدأ حصار الأرثوذكسية بنشر الخوف من الاتحاد بالرب واستبدال الأخلاق الجيدة به. ومع كون الأخلاق الجيدة ضروري جداً، إلَّا أن ذلك **ليس هو جوهر الإنجيل**، وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: يجب أن يكون واضحاً أن الشريعة والنعمة ليستا نسيجاً واحداً. وقبل أي موضوعٍ آخر، يجب أن يكون واضحاً أيضاً إن محاصرة وتقييد العلاقة مع الله، وشركتنا في حياة الثالوث بأي كلمات –مهما كانت، هي من قبيل وضع اللغة والمفردات والألفاظ، أو حتى المصطلحات اللاهوتية، قبل استعلان النعمة في المسيح، وهذا مرفوض شكلاً وموضوعاً. فعندما وضع المجمع المسكوني الأول في ٣٢٥ قانون الإيمان، واستخدم الآباء تعبير "الواحد مع الآب في الجوهر"، أو "الذي من ذات جوهر الآب"، لم يقصدوا إلَّا أن يكون هذا المصطلح سدَّاً منيعاً أمام هرطقة أريوس، دون أن يعنوا أن يكون هذا المصطلح نفسه تعبيراً عن شركة الأقانيم، أو شرحاً لهذه الشركة، أو شركتنا نحن في حياة الثالوث. فتأكيدُ حقيقةٍ ضروريٌّ جداً لنفي الخطأ وإبعاد الهرطقات، لكن لا يجب أن يغيب عن الوعي أن الحقيقة ليست لفظاً، رغم دفاع اللفظ عنها، وإنما هي الحياة المستعلَنة سرياً *Mystical* أي التي تعلو على اللفظ.

ثانياً: لقد حدَّد آباءُ القرن الرابع والخامس الشركة في حياة الثالوث باسمٍ واحدٍ، وهو "الاتحاد"، وهو تعبيرٌ يعود إلى (رو ٦: ١–٨)، وإلى وحدة الرأس والجسد، أي المسيح والكنيسة. ولكن هذا الاتحاد الذي شَرَحَهُ الاتحاد الأقنومي، أي اتحاد اللاهوت بالإنسانية التي أُخذت من القديسة مريم والدة الإله، لم يكن من أجل الآب، ولا من أجل الابن، ولا من أجل الروح القدس، بل "لأجلنا نحن البشر". لم تكن لدى الثالوث ضرورة تدعوه إلى إرسال الابن؛ لأن المحبة ليست ضرورة حتمية تفرض شريعة البذل على الثالوث، بل هي فيض الصلاح الإلهي والجود الذي لا يمكن أن يخضع للشريعة، بل يواجه الضرورة بالعطاء والبذل، وبسبب الجود والصلاح والمحبة الخاصة للإنسانية جاء الابن وتجسد.

واتحاد الرب بنا لا يحتاج إلى مصطلحات، بل إلى المحبة النارية التي لا تقف عند حدود الألفاظ، بل تعلو إلى الرؤيا الروحية السرية الفائقة التي يمنع المصطلح اللاهوتي انحرافها عن الغاية، وهي الشركة في حياة الثالوث، التي هي شركة محبة لا تقوم بلفظٍ، أو مصطلح، بل بالمحبة المتبادلة التي لا انقسام فيها.

ولكن يبدو أن الذين أعطوا لأنفسهم حقَّ الكتابة في موضوعات لم يدرسوها،

وضعوا "العربة قبل الحصان" كما يقولون في الإعلام. ونحن نقصد مصطلح "الاتحاد الأقنومي" على وجه التحديد. فقد تم حصار المصطلح بغباءٍ شديد من أجل إنكار اتحادنا بالرأس، ربنا يسوع المسيح. فالحقيقة الباهرة التي هي أسطع من شمس النهار، هي أن ما يخص الرب يسوع هو مُستعلَنٌ من أجل الإنسان، لا من أجل الرب نفسه. وشمس الظهيرة في نهار الأرثوذكسية الذي لا يعرف المغيب، هو أن الرب "أعطانا الذي له". صحيح أن تعبير "الاتحاد الأقنومي" خاصٌّ بالمتجسد؛ لتأكيد اتحاد اللاهوت بالإنسانية، وتأكيد أن أعمال الرب في الجسد هي أعمال الأقنوم الواحد والرب الواحد المتجسد، وعلى ذلك يمكننا أن نميِّز أهم الأهداف الشريرة التي يسعى إليها مَن يريدون حصار تعبير "الاتحاد الأقنومي"، ووضعها أمام القارئ:

الهدف الأول: هو إبعاد الرب يسوع عن حياتنا الإنسانية، لعلنا نخلص بالأعمال الصالحة[1]. وربما بسبب انهيار الحياة الأخلاقية، تحولت الدعوة إلى الأخلاق الصالحة هدفاً في التعليم، ولكن حق الإنجيل هو أن الأخلاق الصالحة هي ثمرة الاتحاد بالرب يسوع.

الهدف الثاني: تأكيد "دونية الإنسان" بشكلٍ عام، و"دونية الخاطئ" بشكل أخصّ، الأمر الذي يحذف تماماً كل إشارة أو لمحة لمحبة الله للخطاة، ولأن الدافع الحقيقي لإبعاد الطبيب يسوع عن الإنسان المريض هو تأكيد عبودية "ودونية الإنسان"، وبالتالي تشديد العقوبات على الخطاة استناداً إلى ما حدث مع الرب نفسه –طبقاً لاعتقادهم– الذي عوقب على خطايا البشر وعاقبه الله الآب (بالطبع، لا يخفى ما في ذلك من تجديف على المحبة الإلهية).

وما خفي كان أعظم، ونحن نقصد ذلك الجيل الذي دخل إلى الكهنوت خلسةً، وهو فيلق المطاردة وكتيبة الحرب على الأرثوذكسية من داخل الكنيسة نفسها.

---

(١) كتب مرقس الناسك (رقد في الرب عام ٤٣٠، وهو صديق حميم للقديس كيرلس السكندري، وربما كان رئيس دير في أنقرة (تركيا حالياً) كتاباً "ضد الذين يظنون أنهم بالأعمال الصالحة يرثون ملكوت السموات". (نُشرت الترجمة الإنجليزية في الفيلوكاليا المجلد الأول ١٩٧٩ ص ١٢٥ – ١٤٦)، وقد قامت منشورات النور في بيروت – لبنان بنشر ترجمة عربية لهذا الكتاب في عدة طبعات.

حصار اللفظ والمصطلح لـ "النعمة":

عندما نقول إن الابن المتجسد يحلُّ فينا ويتَّحد بنا بالنعمة، فإن "النعمة" تُحاصَر لفظياً على أنها زائدة، وأنها غير الأقنوم. ولكن التمييز اللفظي لا يجب أن يُحوِّل عمل الثالوث إلى عملٍ بلا أقانيم، موجَّهٍ إلى مَن هم ليسوا أشخاصاً أو أقانيم. فلك أن تخيل -عزيزي القارئ- الثالوث والبشر وعلاقة **لا – أقنومية!!!** كأن هناك فضاءً بين الثالوث والانسانية يملأه شيءٌ اسمه النعمة، أو الطاقة، أو القوة، لا مصدر له، أو أنه مجهول المصدر.

والسؤال الحاسم هنا: ما هي الغاية التي يضمرونها من وراء الحصول على النعمة، أو الطاقة، أو القوة بدون الأقنوم؟ هل يبتغون ألَّا نحب الثالوث، أم نبتعد وننفصل عن المسيح، أو نطرد الروح القدس، أو نكتفي بناسوت الرب وحده؟ ليس هناك من هدفٍ واضحٍ هنا، سوى ضياع الحياة الأبدية، وهو الموضوع الغائب من الوعي، إذ كيف يصبح الإنسان كائناً أبدياً بدون الثالوث، وبدون شركة في أبدية الثالوث نفسه؟ هل يوجد شيء اسمه الحياة الابدية خارج الثالوث؟!!!

إن "الحلول والسكنى بالنعمة" لتأكيد تمايُزنا عن المتجسد، الابن الوحيد، لا يجب أن يؤدي إلى تفريغ النعمة من معناها وحقيقتها وزخمها بما يؤدي إلى ما يمكن أن نسميه بـ "دونية النعمة" نفسها (أي فصلها عن العاطي والواهب)؛ لأن هذا يعني -في النهاية- عدم محبة الثالوث للخطاة. وإذا وصل الأمر لفصل النعمة عن الابن، رغم تأكيد العهد الجديد نفسه أنها "نعمة ربنا يسوع المسيح"، فإننا نعود إلى الخلقة الأولى الساقطة. تأمل كلمات القداس الإلهي في كل الكنائس الأرثوذكسية القبطية – السريانية – اليونانية — الأرمينية، عن أن ما نأخذه في السر المجيد هو: خلاصاً – حياةً أبديةً – شفاءً – ميراث الملكوت – الامتلاء من الروح القدس.

عندما يقول الرب: "ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم" (أع ١: ٨)، ويكتفي المطران بنوال القوة دون ربطها بحلول الروح القدس، فكيف تعمل فينا قوة بدون الروح القدس الأقنوم الإلهي الثالث؟

إن القول بأنه لا أقنوم يعمل فينا، يعني ويساوي أننا لسنا أقانيم أو أشخاص.

فماذا تبقى إلَّا أن تصبح المسيحية دعوةً لا تختلف إلَّا لفظاً عن اليهودية وغيرها.

في عصر سيادة الفضائيات، وتحوُّل العقائد إلى "مانشيتات" في صحافة هابطة، اكتفوا بالقسم الأول من تعليم الرسول: "المسيح افتدانا من لعنة الناموس (الشريعة) إذ صار لعنة لأجلنا"، ليس لأن الآب لَعَنَه (وهو تجديفٌ صارخٌ)، ولكن لأن كل مَن عُلِّق على خشبة هو ملعون لأنه جدَّف على الله. ولكن الحاذقين في فن الإعلام توقفوا عند القسم الأول، رغم أن بقية عبارة الرسول: "لأنه مكتوب ملعون كل مَن عُلِّق على خشبة" (غلا ٣: ١٣-١٤). وهكذا حوكم الرب كمجدِّف؛ لأنه قال إنه ابن الله، وعلى ذلك مزَّق رئيسُ الكهنةِ ثيابه. واليوم يُحاكَم كل مَن يقول إنه ابن الآب في المسيح، ويحاول بعض الإكليروس أن يمزقوا ثياب المعترفين بالإيمان .. ويظل المصلوب شامخاً فوق كل الشرائع وكل المصطلحات لأنه ابن الله ومحبوب الآب.

د. جورج حبيب بباوي

أول مارس ٢٠١٥